© ٢٠١٩ مركز بحوث القرآن
جامعة ملايا، ماليزيا

قرآنيكا، مجلة عالمية لبحوث القرآن
المجلد ١١، ع(١)، يونيو، حزيران ٢٠١٩م، ص١٢٣-١٤١

قراءة أسلوبية في سورة القمر (*)

د. راشد بن حمد بن هاشل الحسيني [١]

(A Stylistic Reading in Surah al-Qamar)

Rashid b. Hamad al-Husaini

ABSTRACT

This paper is an attempt to contemplate *Surah al-Qamar* (Ch.54) in terms of the coherence of the Quranic expression at all its levels. To achieve this goal, the present paper adopted the Stylistic Approach to examine the aforementioned *Surah*: its phonetic, vocabulary, structure and semantic. In this regard, the analysis show that *Surah al-Qamar* contains a very fine precision in terms of the sounding of letters, the choosing of the precise words, the coherence of the structure with the psychological situation of the receivers and the whole image that the Quranic discourse draws to illustrate the meanings. Based on these findings, the current paper is expected to encourage researchers to undertake further studies in the Quranic contemplation through examining other Surah and using the same Stylistic Approach which is among the famous methods in our attempts to understand the Holy Qur'an.

Keywords: *Coherence; Quranic Style; Stylistic Approach; Surah al-Qamar.*

(*) This article was submitted on: 6/03/2019 and accepted for publication on: 10/05/2019.

[١] أستاذ مشارك بكلية العلوم التطبيقية بنزوى، سلطنة عُمان، hussaini.88@hotmail.com

ملخص

هذه الدِّراسة محاولة لتدبُّر سورة القمر من حيث دقَّة اللغة وانسجام التعبير القرآني في جميع مستوياته. ولتحقيق ذلك؛ انتهجت الدراسة المنهج الأسلوبي في النظر إلى هذه السورة في مستوى الصوت، والكلمة، وفي المستوى التركيبي والدلالي، وبإخضاع آيات هذه السورة الكريمة للتَّحليل الأسلوبي، اتَّضح وجود دقَّة متناهية في الأسلوب القرآني من حيث تناغم الحروف وأصواتها مع الدلالات المعجمية، ودقة اختيار الكلمة في موضعها وانسجامها مع المقام النفسي للمتلقِّين، وكذلك في التركيب العام للصور والأخيلة. بناءً على هذه النتائج، فإن من المأمول أن تفتح هذه الدراسة آفاقا للباحثين من أجل متابعة تدبُّر القرآن الكريم عبر تحليل سورٍ أخرى بالمنهج الأسلوبي نفسه الذي يأتي ليُكمل مناهج أخرى في محاولاتنا لتدبُّر القرآن الكريم.

كلمات دالَّة: أسلوب قرآني؛ انسجام؛ سورة القمر؛ منهج أسلوبي.

١. مقدمة

هذا بحث حول سورة القمر من خلال أربعة مستويات تحليلية هي المستوى الصوتي: ويبحث عن التركيب الصوتي للكلمة وسماتها الصوتية، وتكرار الكلمة والحرف، ومدى مناسبة ذلك للسياق والمقام الذي وردت فيه. والمستوى التركيبي ويبحث عن تنوع الأساليب من حيث الخبرية والإنشائية وما فيها من ظواهر بلاغية مثل الاستفهام والحذف والتقديم والتأخير. والمستوى الدلالي ويناقش حقلي الأسماء والأفعال، وتكرار هذه الألفاظ ومدى مناسبتها للسياق والمقام الذي وردت فيه. ثم مستوى الصورة وفيه بعض الآيات التي تمثلت فيها الصورة الحسية الحركية.

٢. المستوى الصوتي

من الملاحظ في سورة القمر تناغم الحروف والحركات والكلمات وتلاؤمها وتناسبها فيما بينها دون تنافر أو ثقل في النطق. وكذلك نلاحظ مجيء جميع الآيات على فاصلة واحدة، هي الراء، وهذا عام في السورة كلها، ونجد إيماءات صوتية وإيحاءات فنية على مستوى اللفظة للمفرد تتناغم مع الدلالات المعجمية

للكلمات كما في (اقتربت، الساعة، انشق، سحر، مستمر) حيث نلمح في قلقلة القاف الساكنة في (اقتربت) إيحاء بشيء يتقلقل ويقترب شيئا فشيئا، ونلمح الاقتراب هذا في الانتقال من أقصى الحلق حيث مخرج القاف إلى مقدمة الفم حيث مخرج الباء الشفوية، ومخرج التاء الأسنانية، وكل ذلك متناسب مع الإيحاء باقتراب الساعة، فهي قريبة جدا كقرب الانتقال بين هذين المخرجين، ولذلك صورت سورة القمر هذا الاقتراب بأنه كلمح البصر أو هو أقرب. ونلمح هذا التقريب لأمر الساعة بالتعبير عنه بلفظ (الساعة) دون غيره وهو متناغم صوتيا مع دلالته المعجمية للإيحاء بالقرب، إذ نستشعر ذلك في خفة حروف الكلمة وقلتها وما توحي به دلالة الهمس في السين من الخفاء واللطف. ونحس بصوت الشق وأثره في كلمة (انشق) في حرفي الشين والقاف اللذين يتركب الشق منهما، نستشعر ذلك عند النطق بالشين بما فيها من التفشي والتشويش الذي تكاد تسمع فيه صوت شيء ينهال أو يشقق ونستشعر ذلك الصوت بصورة أقوى أثرا وحسا في صوت القاف المشددة التي تشعرنا بتكرر ذلك التشقق وتسمعك صوته بصورة مفخمة منبعثة من سمة التفخيم في هذا الحرف.

في كلمة (سحر) نستشعر الدلالة على ما في هذا السحر من لطف وخفاء في هذا الهمس وتلك الرقة في حرفي السين والحاء المرققين بتأثير الكسر في السين والسكون في الحاء، إضافة إلى خفاء الحاء المنبعث من بعد مخرجها في أقصى الحلق، بما يشعر بخفاء هذا السحر وبعد أثره وقوته، ولذا اتبعوه بهذا الوصف (مستمر) بما يشتمل عليه من الدلالة على دوامه وبعد أثره وقوته الذي يدل عليه زيادة المبنى في هذه الكلمة.

ونجد إيماءات صوتية، وإيحاءات فنية تتناغم مع الدلالات المعجمية للكلمات في (نُكُر، خُشّعا، مهطعين) إذ نلمح غرابة التركيب وصعوبة النطق في (نُكُر) لتحاكي صعوبة ذلك اليوم وغرابته. كما نلمح أثر الهمس في الخاء والشين في (خشعا) ليحاكي خشوع الخاضعين في ذلك اليوم، وكلمة (مهطعين) نجد أنها تحاكي ذلك الانهطاع عند النطق بها، بسبب الانتقال من الميم الشفوية إلى الهاء الحنجرية التي يلجئك النطق بها إلى مد عنقك كأنك تحاكي ذلك الفعل.

كما نجد التناغم الصوتي مع الدلالات في الكلمات الآتية (صرصرا، يسحبون، مس، سقر) فحينما نتأمل السمات الصوتية لحرف السين بما له من طبيعة احتكاكية تبدو واضحة عند النطق به نستشعر مدى مناسبة هذا الصوت الاحتكاكي لسياق الآية ومعناها إذ يتهكم بالكافرين حينما تأكل

النار أجسادهم بمجرد المماسة لها ويأتي حرف السين بما فيه من احتكاك وصفير كأنه محاكاة لصوت احتكاك تلك النيران بأجساد هؤلاء الكافرين، بل إننا لنستشعر عند النطق بهذه السينات المتتالية في (مس / سقر) محاكات صوت الشيء الذي يشيط ويحترق عند تسليط النيران عليه.

إن عموم هذه السورة نجد فيها صوت الراء مكررا أكثر من مئة مرة فضلا عن انتظامه سجعيا في آيات السورة، وما يؤديه هذا الصوت المتوسط الموحي بالشدة من إيقاع صوتي يؤول كثرة ترداده إلى أن هذا الحرف المتكرر في طبيعة نطقه، يحدث بضربات عديدة ومتكررة من اللسان على اللثة، وهذا التكرار يوحي بواقعية تكرار العذاب على من كفر بآيات الله المنزلة على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فهو سبحانه يعيد عليهم العذاب ويكرر المأساة ثانية على الكفرة المكذبين بعد أن سيق العذاب على من سلف من أصنافهم في الأديان السابقة فضلا عن تناسق هذا الإيقاع الصوتي مع سياق السورة المتمثل "بحلقة عذاب رهيبة سريعة لاهثة مكروبة يشهدها المكذبون، كأنما يحسون إيقاعات سياطها فإذا انتهت الحلقة و بدأوا يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولا ورعبا، وهكذا تنتهي الحلقات السبع في هذا الجو المفزع الخانق فيظل المشهد الأخير في السورة فإذا هو جو آخر ذو ظلال أخرى، وإذا هو الأمن والطمأنينة والسكينة "[١]

ولعل القيمة الأسلوبية لتكرار صوت الراء تكمن في انتقاله من نغم عاصف هادر إلى نغم ملاطف موادع، إذ بدأت شديدة عنيفة وانتهت هادئة آمنة.[٢] إذ أن في سجعة الراء شحنات أسلوبية تتمثل في كيفية مطابقتها لسياق الحال فهي شديدة في ثلاث وخمسين آية، هادئة في الآيتين الأخيرتين، ولما كان حرف الراء أقوى الحروف في اللغة وأشدها تماسكا فإن الوقوف عليه بالسكون يجعله في رخاوة ولين [٣].

ولما كانت سجعة الراء ساكنة في نهايات الآيات فقد عم اللفظة المختومة بالراء المشددة السكون أيضا في الآيات الخمس الآتية: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ

---

[١] في ظلال القرآن الكريم – سيد قطب .دار الشروق (د.ت) ج٦ /٣٤٢٥

[٢] إعجاز القرآن – الإعجاز في دراسات السابقين – دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها – د. عبد الكريم الخطيب، ط (١) دار الفكر العربي، مصر، ١٩٧٤م، ص٣٩٧

[٣] المصدر السابق ص٤٠٤

وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ (القمر: ٢-٣)، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ (١٩)، ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ (٣٨) ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ (٤٦).

ولما كانت الأسلوبية "تتحرى دراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته ليؤثر ويقنع في آن واحد "[١]، فالملمح الأسلوبي في هذه الآيات هو الوقف على التضعيف للانسجام الموسيقي الفني مما يكون صوتا ثانويا يحمل قيما أسلوبية تجعل الوقف متاحا للنص القرآني وفيه حرية التحرك في فواصل الآيات فضلا عن تمكينه المعنى وتوازنه للإيقاع الذي تسهم الفواصل في تكوينه وإبرازه.

٣. المستوى التركيبي

افتتحت السُّورة بقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، فأسند الاقتراب إلى الساعة نفسها لا إلى زمنها مبالغة في إثبات القرب لها، وعطف على اقتراب الساعة انشقاق القمر، وهو آية من آيات اقترابها فكأنها من باب ذكر الشيء مشفوعا بدليله وبرهانه. ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ "إخبار عن حالهم فيما مضى بعد أن أخبر عن حالهم في المستقبل بالشرط الذي في قوله: (وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا) "[٢] أي أن من شأنهم وحالتهم أنهم متى رأوا ما يدل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم من الآيات الباهرة أعرضوا عن الإيمان به وبتلك الآية.

وجاءت الجملة شرطية ليدل على أنهم في الاستقبال على مثل حالهم في الماضي [٣] "ومقابلة ذلك بهذا فيه شبه احتباك كأنه قيل: وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ويقولوا: سحر، وقد رأوا الآيات وأعرضوا وقالوا: سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وسيكذبون ويتبعون أهواءهم". "وعَطْفُ (واتبعوا أهواءهم) عطف العلة على المعلول لأن تكذيبهم لا دافع لهم إليه إلا اتباع ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه

---

[١] البلاغة والأسلوبية.د.محمد عبد المطلب مكتبة لبنان ناشرون لونجمان، مصر، (ط١) ١٩٩٤م، ص١٩٥ .

[٢] التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور. دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس ١٧٢/١٣

[٣] البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان –دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت، ط (٢) ١٩٨٣م– ١٧٤ / ٨.

وعهدوه واشتهر دوامه" [١] "والتنكير في الآية للتعظيم أي إن يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا" [٢] وقوله تعالى: (وكل أمر مستقر) "هذا تذييل للكلام السابق من قوله: (وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا) إلى قوله: (أهواءهم) فهو اعتراض بين جملة (وكذبوا) وجملة (ولقد جاءهم من الأنباء) والواو اعتراضية وهو جار مجرى المثل "[٣] وقوله تعالى: (وكل أمر مستقر) "استئناف مسوق للرد على الكفار في تكذيبهم ببيان أنه لا فائدة لهم فيه ولا يمنع علو شأنه صلى الله عليه وسلم، أو لإقناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا: (سحر مستمر) ببيان ثبوته ورسوخه، أي وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة، ومن جملتها أمر النبي صلى الله عليه وسلم فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه، وللإشارة إلى ظهور هذه الغاية لأمره عليه الصلاة والسلام لم يصرح بالمستقر عليه" [٤] أي "كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق، أو باطل وسيظهر لهم عاقبته. أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر، أي سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا، وشقاوة أو سعادة في الآخرة "[٥]

والمراد بالاستقرار الذي في قوله: (مستقر) في الدنيا. وفي هذا تعريض بالإيماء إلى أن أمر دعوة محمد صلى الله عليه وسلم سيرسخ ويستقر بعد تقلقله [٦] (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ٤ حكمة بالغة فما تغن النذر ٥) أي جاءهم في القرآن من أنباء الأمم ما فيه مزدجر لهؤلاء، وأريد بالأنباء الحجج الواردة في القرآن، أي جاءهم ما هو أشد في الحجة من انشقاق للقمر. و (من الأنباء) بيان ما فيه مزدجر،قدم على المبين و (من) بيانية.. وجعل الازدجار مظروفا فيه،مجازا للمبالغة في ملازمته له على طريقة التجريد.[٧]

---

[١] التحرير والتنوير ١٧٢/١٣

[٢] التفسير الكبير، مفاتيح الغيب – الفخر الرازي – أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي الرازي، دار إحياء التراث العربي ط (٢) ١٩٩٧م، مج ٢٩٠/١٠

[٣] التحرير والنتوير ١٧٢/١٣

[٤] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – الألوسي شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني تصحيح وضبط علي عبدالباري عطية – دار الكتب العلمية بيروت، ط (١) ١٩٩٧م، مج٧٧/١٤

[٥] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل – جار الله الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر، دار الفكر للطباعة والنشر، ٣٧/٤

[٦] التحرير والتنوير١٧٤/١٣

[٧] التحرير والتنوير١٧٥/١٣

" (وحكمة بالغة) بدل من (ما)، أي جاءهم حكمة بالغة.. وفرع عليه قوله: (فما تغن النذر) أي جاءهم ما فيه مزدجر فلم يغن ذلك، أي لم يحصل فيه الإقلاع عن ضلالهم" [١] ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ (٧-٨)، "أذلة أبصارهم من شدة الهول أي أذلاء من ذلك. و (خشعا، ومهطعين) حال من فاعل (يخرجون) وكلا الحالين الأولى والثانية ترسم صورة هؤلاء الخارجين للحشر وما هم عليه من الفزع والهلع والخوف الشديد مع ماهم عليه من الذلة والانكسار، "ووصف اليوم (بعسر) وصف مجازي عقلي باعتبار كونه زمانا لأمور عسرة شديدة من شدة الحساب وانتظار العذاب."[٢]

الآيات: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ (٩-١١)، " نلاحظ الربط بين هذه الجمل بالفاء التي تفيد التعقيب والسرعة، فعلى القول بأن الفاء للترتيب في قوله (فكذبوا) فيكون المقصود أنهم كذبوا نبيهم بمجرد دعوتهم إياه. وكذلك يكون المعنى في قوله: (فدعا) أي حينما بلغ التكذيب مبلغه دعا ربه فكانت الإجابة على وجه السرعة: (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر)، وعطَفَ الجُملَ التي بعدها عليها بالواو ؛ لأنها مشتركة معها في الحكم وزمن الوقوع، فالواو للدلالة على الجمع والاقتران ؛ فلذا قال: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ (١٢-١٣)، "وجملة (تجري بأعيننا) نعت لإظهار مدى العناية الإلهية في حفظ تلك السفينة، و (جزاء لمن كان كفر) مفعول لأجله أي فعل ذلك (جزاء لمن كان كفر) " أي جعلنا ذلك ثوابا وجزاء لنوح على صبره على أذى قومه وهو المكفور به، فاللام في (لمن) لام المفعول له، وقيل (كفر) أي جحد، ف (من) كناية عن نوح.وقيل كناية عن الله، والجزاء بمعنى العقاب، أي عقابا لكفرهم بالله تعالى ".[٣]

---

[١] التحرير والتنوير١٣/١٧٥

[٢] التحرير والتنوير١٣/١٧٨.

[٣] الجامع لأحكام القرآن – القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري القرطبي – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ١٩٩٣م، مج ٨٧/٩

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (١٦)، "أي: إنذاري.. و الاستفهام للتهويل والتعجيب، أي: كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف، وقيل: نذر جمع نذير، ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار "[١] فيكون المعنى: فكيف كان إنكاري وانتقامي ؟.

إن سورة القمر من السور المكية التي تقصر فيها الفواصل أو تتوسط لتتابعها وبروز موسيقاها فإن الخطاب الإلهي اتسم بحرارة التعبير على المستوى الأسلوبي وكثر فيها أسلوب الاستفهام الإنكاري، والتوكيد، والوعيد، والتحذير، فضلا عن قصر الجملة المكية والفاصلة المكية مما يناسب عقول المكيين وأفهامهم، وفي ذلك سر من أسرار الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وهو مناسبة الخطاب اللغوي في االسورة المكية لطبيعة المكيين فقد كانوا قوما جبارين تسودهم المنكرات والفواحش والعادات السيئة والأخلاق الفاسدة [٢].

ومن أمثلة الاستفهام المتكرر في السورة. ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (١٧؛ ٢٢؛ ٣٢؛ ٤٠). إن الملمح الأسلوبي في هذا الاستفهام لا يراد منه جواب، بل جاء للتهويل والاتعاظ بما حل بالأقوام الكافرة والمكذبة لرسل الله، وفي الآيات نلحظ وقوع عبارة (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) بمثابة فاصلة بين كل مشهد وآخر فقد جاءت أولا بعد قصة قوم نوح، وثانيا بعد قصة قوم هود، وثالثا بعد قصة قوم صالح ورابعا بعد قصة قوم لوط، ثم جاءت ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في الآيات (١٦، ١٨، ٢١، ٣٠) عبارة مساعدة للعبارة الأولى تكررت على مدار هذه القصص الأربع وهو تماثل دلالي يلمح في الاستفهام المتكرر بدلالته على الوعد والوعيد والتهويل والتعظيم[٣] وقال القاسمي:" إن التكرار جاء للتهويل والتنبيه على فرط عتوهم أي فيف

---

[١] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. الشوكاني محمد بن علي بن محمد – مراجعة يوسف الغوش، دار المعرفة – بيروت – لبنان، ط (١) ١٩٩٥م، ١٥٢/٥

[٢] من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم – محمد السيد سليمان العبد _ المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع٣٦، مج ٩، ١٩٨٩م. ص٨٨.

[٣] انوار التنزيل وأسرار التأويل ٤٤٧/٢.

كان عذابي لقومه وإنذاري لهم على لسانه "[١] فهي مجموعة أسئلة لإيقاظ القلوب إلى هول العذاب، وصدق النذير، وفيها تهويل وتعجيب. [٢]

وفي السياق نجد تحولا دلاليا عن المعنى المذكور في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ فقد دل هذا الاستفهام على الإنكار والتقريع والتوبيخ أي أكفاركم يا معشر العرب خير من أولئكم الكفار الذين أحللت بهم نقمتي مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون حتى لا أعذبهم" [٣] فهذه مصارع المكذبين فما يمنعكم أنتم من مثل هذا المصير أكفركم خير من أولئكم وما ميزة كفركم على أولئكم أم لكم براءة في الزبر "تشهد بها الصحائف المنزلة فتعفوا من جرائر الكفر والتكذيب ؟ الحقيقة لا هذه ولا تلك فلستم خيرا من أولئكم و ليست لكم براءة في الصحف المنزلة وليس هناك إلا لقاء المصير الذي لقيه الكفار من قبلكم في الصورة التي يقدرها الله لكم، ثم يعدل عن خطابهم إلى خطاب عام فيعجب من أمرهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ (٤٤) وذلك حين يرون جمعهم فيعجبون بقوتهم ويغترون بجمعهم فيعلنها عليهم مدوية قاضية حاسمة [٤] ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (٤٥)

أما الحذف فهو من الظواهر الأسلوبية في القرآن الكريم ومنه سورة القمر، والحذف في مواضع يكون أبلغ من الذكر كما قال عنه الجرجاني "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن " [٥]. ومن أمثلة حذف الفاعل في سورة القمر قوله تعالى ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (٤٥) فهذا المقام "عدة من الله لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بهزيمة جمع قريش يوم بدر "[٦]، باستعمال حرف الاستقبال السين مع الفعل المبني للمجهول، ولما كانت صيغة المبني للمجهول مناسبة للساعة عدل التعبير القرآني عن الحديث عن قريش إلى الحديث عن الساعة

---

[١] محاسن التأويل — محمد جمال الدين بن محمد القاسمي، تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبدالباقي، دارالفكر بيروت ط (٢) ١٩٧٨م ، ٢٦٨/١٥.

[٢] في ظلال القرآن — سيد قطب. دار الشروق (د.ت) ٦/ ٣٤٣١-٣٤٣٠

[٣] صفوة التفاسير — محمد علي الصابوني، ، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان ط (١) ١٩٩٨ م، ٢٠٥/٣.

[٤] في ظلال القرآن، ج٦/٣٤٣٥

[٥] دلائل الإعجاز — عبد القاهر الجرجاني، تعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د، ت)، ص١١٢.

[٦] البحر المحيط — أبو حيان الأندلسي دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط (٢) ١٩٨٣م، ج ١٨٣/٨.

الذي يتواءم مع هذه الصيغة التي هي مظهر من مظاهر الاستغناء عن الفاعل، ثم يكرر لفظ الساعة، ويصف حال المجرمين بصيغة البناء للمجهول أيضا إذا يسحبون على وجوههم في النار قال تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٦-٤٨).

وقد كثر حذف المفعول به في هذه السورة، ولاسيما في فعل التكذيب وهو محور السورة الكريمة، وذلك "للإيجاز والاختصار ؛ لأن ما قبله يدل عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (٣) أي كذبوا ما رأوا، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾، أي كذبت قوم نوح الرسل وكذلك قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (١٨)، أي كذبت عاد الرسل "[١].

ومثله أيضا في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ (٢٩)؛ إذ حذف مفعول تعاطى أي تعاطى الناقة فقتلها أو تناول السيف، وكذلك حذف مفعول (عقر) أي عقر الناقة، وكذلك مفعول (شكر) في قوله تعالى: ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ (٣٥)، والتقدير من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة [٢]

والحذف في نهاية الآيات يعطي أثرا إيقاعيا للمحافظة على موسيقى الفواصل. أما الحذف داخل السياق فيحقق نوعا من التوازن الداخلي للكلام، كما أن حذف الياء من الآيات قد حقق إيقاعا موسيقيا، ولو لم تحذف الياء لأحسسنا بشيء من الكسر في الموسيقى الداخلية للآيات [٣].

أما عن ظاهر التقديم والتأخير فهي ظاهرة أسلوبية متفشية في كثير من سور القرآن الكريم ومن صورة تقديم الحال على عامله كقوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ (٧)، وقوله: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ (٨)، يقول أبو حيان في (خشعا أبصارهم) " وانتصب خشعا على الحال من ضمير يخرجون والعامل فيه يخرجون "[٤]وخشوع الأبصار كناية عن الذلة والانخزال ؛ لأن

---

[١] حكم الحذف والاختصار، بهجت عبد الواحد محمد، ط١، مكتبة دنديس الأردن عمان، ٢٠٠٠م ١٢٧/١ ,

[٢] روح المعاني – محمود الألوسي، تصحيح علي عبدالباري عطية – دار الكتب العلمية بيروت، ط (١) ١٩٩٧م، مج٧٨/١٤

[٣] من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم. د. محمد السيد سليمان العبد. ص٩٥.

[٤] البحر المحيط ١٧٥/٨

ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما.."[١] و (مهطعين إلى الداع) (مسرعين مادي أعناقهم إليه، وقيل: ناظرين إليه لا يعقلون بأبصارهم ". [٢]

ولعل القيم التعبيرية لتقديم الحال في الآيتين تتمخض في إرادة معنى بليغ هو الذلة والانكسار للمكذبين وشعورهم بهول الموقف العصيب ؛ لأن لفظة (الخشوع) تعني (الخضوع والاستكانة عن ضراعة أو عن رهبة وإجلال، وهو ما يتجلى في الصوت والبصر والسكون والغض..، وقد جاء الخشوع في القرآن صادرا عن رهبة وإجلال حين يسند إلى المؤمنين أو إلى الجماد [٣]، وتقديم المفعول به جاء لمقاصد دلالية ولغوية منها:

أ- **الإنكار**: وهو إنكار في طريق الإحالة والمنع وذلك في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ (٢٤)، إذ إنهم "بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشرا لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع، ويُنتهى إلى ما يأمر ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى ، وأنهم مأمورون بطاعته "[٤].

ب- **التخصيص**: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ (٤١)؛ إذ خصص آل فرعون بالنذر؛ لأنهم تفردوا بتكذيب نبوة موسى عليه السلام. أما الآخرون من قوم فرعون فقد آمنوا بموسى عليه السلام لذلك لم يشملهم العذاب.

٤. المستوى الدلالي

١,٤ حقول الأفعال:

لقد اختار النظم القرآني في الفعل في أول السورة (اقتربت) فاختيار الفعل الماضي (اقترب) دون نظائره في هذا السياق جاء مناسبا للتعبير عن حدث مستقبلي (حدوث يوم القيامة) للدلالة على تحقق وقوعه. كما أن الوزن (افتعل) (اقترب) يدل على زيادة في القرب، فلو قال: سوف تقترب أو ستقترب لدل

---

[١] الكشاف ٤/٣٦.

[٢] الكشاف ٤ /٣٧.

[٣] التفسير البياني للقرآن الكريم ١/ ١٩٩.

[٤] دلائل الإعجاز ٩٥.

على الاستقبال، أما استعمال الفعل الماضي فدل على أنه واقع مستقبلا لا محالة، حتى لكأنه وقع وانتهى الأمر.

وبدأت السورة، بهذا الخبر القارع للأذن ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ المفاجئ للقارئ لعله يلتفت إلى هذا الأمر. فهذان حدثان متتابعان مترابطان أحدهما حدث في أرض الواقع، والآخر سيحدث مستقبلا، وحدوث ثانيهما دليل على تحقق الآخر لا محالة، فهما جملتان مترابطتان ومتطابقتان تركيبا وتأثيرا (فعل وفاعل).

وقدم اقتراب الساعة الذي سيحدث في المستقبل على انشقاق القمر، والذي هو حدث ماض قريب ؛ ليدل على أن وقوعها حتمي، وهي الحدث الأهم، ومن شأن العرب تقديم الأهم، كما أن معجزة انشقاق القمر حصلت وعاينوها بأعينهم. وما انشقاق القمر إلا دليل على اقتراب الساعة، كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه، كما لا يخفى ما في ذلك من دلالة على الإنذار، فقد بات الأمر وشيكا.

(انشق القمر): اختيار الفعل (انشق) – بما له من دلالة حسية بصرية واضحة للعيان — جاء مناسبا للدلالة على وضوح هذه الآية البينة، والتعبير ب (القمر) له دلالة بصرية واضحة أيضا، وجعله النظم القرآني مناط المعجزة لهو أقوى دليل على وضوح هذه الآية، واختيار القمر مناطا لهذه المعجزة دون الشمس إنما هو لكونه أمكن في الرؤية من الشمس ؛ لإمكان النظر إليه والتحديق فيه مع أمن الأذى للبصر دون أن يرتد البصر خاسئا وهو حسير، وأيضا "فإن العرب تضرب بالقمر مثلا فيما وضح".[١]

لقد كرر النظم القرآني الفعل (كذب) بصيغة المبالغة (فَعَّلَ) في سياق عرضه قصص الأنبياء موظفا ظاهرة التكذيب التي طرقتها مقدمة السورة آية ٣ فقِصصُ نوحٍ، وعاد، وثمود ولوط، وفرعون، تحوم جميعها حول عرض ظاهرة التكذيب ؛ إذا استفتحت كل قصة بعبارة (كذّبتْ) أو (كَذّبوا).

[١] البحر المحيط، ١٧٣/٨

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾ (٣)؛ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ (٩)؛ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (١٨)؛ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ (٢٣)؛ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ (٣٣)؛ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾.

فالقيمة الأسلوبية لتكرار فعل التكذيب تتجسد بقِيَم شُحَنٍ تعبيرية أضفتها بتسلية النبي (صلى الله عليه وسلم) وتأسّيه بالأنبياء السابقين (عليهم السلام) إذا ابتلوا بأقوام قد كذبوا ما جاءوا به من البينات كما ابتلي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأهل مكة كما تشير الآية التاسعة من السورة. فالضمير (هم) يعود على أهل مكة مما يخلق نوعا من التماسك النصي في السورة.

فقد أوجز التعبير القرآني خمس قصص في آيات معدودة مكررا حدث التكذيب إنذارا لكفار قريش ووعيدا لهم مسخرا تكرار عبارات بين كل مشهد. ولعل بصمة الشحن الموجودة في التكرار تعد ملمحا أسلوبيا آخر فضلا عن الإيجاز وقصر العبارات ترسيخا وتقريرا وإقناعا. وهذا الأسلوب هو أقوى أنواع الاستدلال النفسي وأدعاها إلى اليقين وأشدها إيحاء بالحسم والجد كما انتهت إليه الدراسات النفسية.[١] ولأن سورة القمر من السور المكية التي تقصر فيها الفواصل أو تتوسط لتتابعها وبروز موسيقاها، فإن الخطاب الإلهي اتسم بحرارة التعبير على المستوى الاستفهام الإنكاري، والتوكيد، والوعيد والتحذير فضلا عن قصر الجملة المكية والفاصلة المكية مما يناسب عقول المكيين، وأفهامهم، وفي ذلك سر من أسرار الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وهو مناسبة الخطاب اللغوي في السور المكية لطبيعة المكيين، فقد كانوا قوما جبارين تسودهم المنكرات والفواحش والعادات السيئة والأخلاق الفاسدة.[٢]

٢,٤ حقل الأسماء

(الساعة) لقد اختار النظم القرآني التعبير بالساعة دون غيرها من أسماء القيامة الكثيرة، ودون التعبير باليوم مثلا، وذلك لتقريب زمانها ؛ والإيحاء بسرعة أمرها. خلافا لما يعتقده المكذبون من استبعاد زمانها.

---

[١] ينظر عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ التفسير البياني للقرآن الكريم، ١٦٨/١

[٢] من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم (بحث) محمد السيد سليمان العبد، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، ع٣٦، مج ٩، ١٩٨٩، ص٨٨ .

(أية) في "وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا " تنكيرها يكشف عن حقيقة كامنة فيهم وهي الإعراض عن كل معجزة يأتي بها الرسول صلى الله عليه وسلم مهما كانت عظيمة ؛ ولهذا جاء إنكارهم لمعجزة انشقاق القمر منسجما مع حقيقة أنفسهم. فموقفهم واحد إزاء أي آية سواء انشقاق القمر أو غيرها. فالنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، وجيء بخبر إنكارهم في صورة الشرط للدلالة على أن هذا ديدنهم ودأبهم، وتنكير (آية) أيضا يدل على التعظيم فهي آية عظيمة واضحة مفلقة، والتعظيم من معان التنكير

(وكل أمر مستقر) اختار النظم القرآني التعبير ب (مستقر) للدلالة على ثبات الأمر ووضوحه فليس في الأمر اضطراب يدعو للشك أو القلق أو التردد ؛ أمر الإيمان بما يشتمل عليه من الحقائق الثابتة المستقرة، وأمر الكفر بما يشتمل عليه من الكذب والبهتان المستقر بطلانه وضلاله كذلك [١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ (٤)، جاء باللام و (قد) للتوكيد والتحقيق، وعبر بالأنباء دون الأخبار: إما للإشارة إلى ورودها بطريق النبوة، فهي أكثر وثوقا، وإما لعظمها وعلو شأنها لاشتقاق النبأ من النبيء: الطريق الواضح، والمكان المرتفع " [٢] والمصدر الميمي (مزدجر) يدل على المبالغة في الردع ؛ لأنه يتضمن إضافة إلى معنى الزجر، معنى المدعاة إلى الزجر، فتتضمن السبب وما ينبغي أن يترتب عليه من مسبّب.

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ (٦-٨). الأسماء في هذه الآيات هي: (نكر، خشعا، الأجداث، مهطعين، عسر)

فكلمة (نُكُر) صفة نادرة تأتي للتعبير عن الشيء الفظيع المستنكر الذي لا مثيل له "قال الخليل: النكر نعت للأمر الشديد والوجل الداهية، أي النكرة النفوس لأنها لم تعهد مثله، وهو يوم القيامة.

---

[١] المصدر نفسه مج١٠/٣٠٨

[٢] القاموس المحيط، الفيروز آبادي محمد بن يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط (١) ١٩٩٥، ١/٣٧: مادة (نبأ).

فلذلك وقع اختيار النظم القرآني على هذه الكلمة الغريبة لتعبر عن هذا اليوم العجيب واختار النظم القرآني لوصف الأبصار (خشعا) تقريرا للذلة والخضوع عند معاينه الأهوال وذلك لأن "الخشوع في الصوت والبصر كالخضوع في البدن، واختشع طأطأ رأسه راميا ببصره إلى الأرض ".[١]

وآثر التعبير ب (الأجداث) على القبور لأن الجدث إنما يطلق على الحفرة التي يكون الميت فيها ؛ فكأن في ذلك إشعارا بحقارة أمر وما يؤول إليه. فيناسب سياق التبكيت لهؤلاء الكفرة. والقبر يطلق على ما فيه من تكريم للإنسان. جاء في صحاح الجوهري " القبر: واحد القبور. والمَقْبَرة، والمَقْبُرة بفتح الباء وضمها واحدة المقابر.[٢]

وعبر ب (مهطعين) للدلالة على شدة الخوف والفزع والهلع في ذلك اليوم، يقال: (هطع الرجل، إذا أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه يهطع هطوعا، وأهطع، إذا مد عنقه وصوب رأسه، وبعير مهطع: في عنقه تصويب خلقة. وأهطع في عدوه.أي أسرع "[٣] وقال الألوسي: " مهطعين إلى الداع " مسرعين إليه . قال أبو عبيدة: وزاد بعضهم ماديّ أعناقهم ، وآخر مع هزّ ورهق ومدّ بصر. وقال عكرم: فاتحين آذانهم إلى الصوت. وعن ابن عباس ناظرين إليه لا تقع أبصارهم عنه.[٤]

٥. مستوى الصورة

لقد وصف الله جل وعلا صورة الطوفان بقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (١١-١٢) فـ (نا) الدالة على التعظيم في (فتحنا) زادت من تصوير شدة العذاب الذي حل بهم، وجُمعت أبواب السماء للدلالة على كثرة الأمطار وانصبابها، مع أن كلمة المنهمر قد تدل على الانصباب بشدة وغزارة، زيادة في إبراز هول الموقف، واللافت أن الله – عز وجل – عذبهم بمادة الحياة الأولى (الماء) فكلما بدلوا نعمة الله كفرا بدل الله النعمة عليهم عذابا وأهوالا ودمارا.

---

[١] التحرير والتنوير ١٣/١٧٨

[٢] الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية –اسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار.دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط (٢) ١٩٧٩م.مادة:قبر ٢/٧٨٤

[٣] الصحاح، للجوهري، مادة:هطع، ٣/١٣٠٧

[٤] روح المعاني –الألوسي – مج١٤/٨٧.

وصورت الآيتان العذاب بمشهدين – اتفقا في تصوير النتيجة (شدة العذاب) الأول: مشهد للعذاب من السماء في قوله تعالى: (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) ففيها مركب تمثيلي لهيئة اندفاق الأمطار من الجو بهيئة خروج الجماعات من أبواب الدار، الثاني مشهد للعذاب من الارض ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ وتركيب الآية (وفجرنا الأرض) دل على أن الأرض كلها صارت عيونا – بخلاف لو قيل وفجرنا عيون الأرض – متفجرة، مبالغة في تصوير العذاب بدليل قوله (عيونا) وهو ما اقتضى صنع السفينة لتكون وسيلة النجاة الوحيدة، كما تدل (فجر) بالتشديد على القوة والمباغتة والسرعة وتومئ إلى الغضب الإلهي.

ولعل عنصر التفرد الذي تستهدفه الصورة هو هول الموقف الذي يحقق عنصر الإثارة الفنية عند المتلقي لا سيما إذا انطوى التشبيه على آثار بالغة الدهشة، ففي قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، مثلهم بالجراد المنتشر في الكثرة والتموج ؛إذ يجتمع الجراد حتى إذا طلعت الشمس يبدأ بالانتشار، والخروج من الأحداث بعد إحداث النفخة عليها يتبعه انتشار أيضا، وانتشار الجراد يتسم بالكثرة ومثله الانبعاث، وانتشار الجراد يتسم بكونه تراكما عشوائيا، ومثله الانبعاث، فضلا عن أن انتشار الجراد مقترن بالانبهار، وكذلك الخروج من الأجداث، إذن فالأطراف التي اعتمدتها صورة الجراد المنتشرة تتعدد و تتماثل مع أطراف الخروج من الأجداث. وثمة صورة أخرى تجسد مفردات من التماثل بين طرفي الصورة الفنية نلمحها في قصة عاد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (١٩-٢٠)، أسند الله تعالى الحدث إلى نفسه في قوله (إنا) للإشعار بشدة غضبة عليهم، وبشدة العذاب الذي حل بهم، ودلت (نا) الدالة على العظمة على قدرته – سبحانه وتعالى – وهيمنته وامتلاكه لتلك الأقوام وتسيير أقدارها.

وصورت كلمة (صرصر) شدة العذاب المعنوي والمادي الذي حل بهم فالمادي تمثل في برودة هذه الريح، أما المعنوي فتمثل في صوتها الشديدة حتى إن مجرد نفوذها يسمع له صرير، وإن لم تصطدم بما يقتضي الصرير، لأنها قوية جدا.

وجاءت الصورة الحسية البصرية الحركية في قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ لتصور المشهد غير المرئي من عذابهم بالنسبة لمن لم يرهم المتمثل بأعجاز النخل المنقعر ؛ لأن الريح كانت

بقلع رؤوسهم فتبقى أجسادا وجثثا بلا رؤوس، وفي هذا تقريب للصورة، وإبراز لشدة العذاب الذي حل بهم، وشدة الريح وقوتها.

وفي تصوير الريح تنزع أعجاز النخل إيحاء إلى أن العذاب الذي حل بهم كان عذاب استئصال بدليل أنه اقتلعهم من جذورهم، والنبتة التي تقتلع من الجذور تنتهي حياتها. وتمت كلمة (منقعر) الصورة، لأن الريح صرعتهم صرعا تفلقت منه بطونهم وتطايرت أمعاؤهم وأفئدتهم فصاروا جثثا فُرغا، وهذا تقذيع ومثلة لهم لتخويف من يراهم فكلمة (منقعر) لخصت المشهد في أشد لحظاته صعوبة وقوة، وذكرت الآية مشهد النخل المنقعر لتدع للقارئ فرصة تخيل المشهد غير المرئي (مشهد هلاك عاد) فالمشهد المرئي حسي، دل على المشهد غير المرئي، فلا أحد رأى مشهد عذاب قوم عاد — لحدوثه في الماضي البعيد — لكن العماني وغيره من الذين يعيشون في واحات النخيل رأى بأم عينه أعجاز النخل المنقعر وبهذا تكون قنطرة المشابهة نقلت أسرار الماضي السحيق عبر صورة حسية لها قوة التجربة.

وبذلك يكون التشبيه وسيلة أسلوبية تناسب حال المشبه لتكوين صورة تنتقل بالكلام من وسيلة إخبار عادية إلى وسيلة تأثير فنية من خلال التنويع في الأداة ؛ فقد استعمل (كأن) في الآية (٢٠) في رسم العقاب لمجتمع عاد ثم عدل عنها إلى الكاف في الآية (٣١) عند رسمه العقاب لمجتمع ثمود.

ورسمت (كانوا) في قوله تعالى: ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾، صورتين لحال القوم، الأولى: حالهم قبل العذاب فهم كانوا في نضارة وحيوية وقوة وحسن. والصورة الثانية: حالهم بعد الصيحة فإذا هم كالهشيم الذي يجمعه صاحب الحظيرة، أي قد انتهى إلى غاية الجفاف حتى بلغ إلى أن يُجمع ليوقد، وبذا تدل كلمة (كان)، في هذا السياق على التحول والصيرورة.

ووصف القوم بعد العذاب بالهشيم المحتظر للدلالة على أنهم بادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية وخمدوا وهمدوا، فالهشيم يكون سهل الانكسار، كما أن صورة الهشيم المحتظر أوحت للمتلقي بالصورة المقابلة لها صورة القوم قبل هلاكهم، وهم في كامل قوتهم وعزهم، فهم قبلا كالعود الخضر النضر.

وهكذا أسدلت الستارة على مشهد عذابهم بصورة حسية بصرية (صورة الهشيم المحتظر) وغرض هذا الوصف تقريب الصورة للأذهان، فالمتلقي لم ير العذاب الذي حل بهم لكنه رأى الهشيم

المحتظر، كما أن هذا الوصف يبرز قدرة الله — سبحانه وتعالى – على نصرة المؤمنين، وإهلاك أعدائه عندما يستحقون ذلك.

خاتمة

لقد اتَّضح فيما مضى في المستوى الصوتي وجود تناغم الحروف وأصواتها مع الدلالات المعجمية كحروف الهمس وما فيها من دلالة الرقة وتكرار حرف الصاد مثلا في (صرصر) وما فيه من طبيعة احتكاكية موحية بالصرير، وكتكرار صوت الراء أكثر من مئة مرة وما يوحيه إيقاعه الصوتي من إحداث ضربات متكررة من اللسان على اللثة،وإيحاؤه بواقعية تكرار العذاب على الكفرة، وما في سجعة الراء من شحنات أسلوبية.وفي دراستي للمستوى الدلالي وجدت النظم القرآني اختار صيغة المبالغة (كذبوا) لما له من دلالة على شدة التكذيب والإعراض واختيار فعل التكذيب يتجسد في إضفاء شحن تعبيرية تجسدت في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتأسّيه بالأنبياء السابقين الذين ابتلوا بأقوام كذبوهم.

وفي حقل الأسماء وجد اختيار (الساعة) دون غيرها من أسماء القيامة وتنكير (آية) واختيار (نكر) والتعبير ب (الأجداث) و (مهطعين) لمالها من دلالات أوحت بالعظم والشدة والهلع. وفي المستوى التركيبي برزت في سورة القمر قصر الفواصل وتوسطها وبروز موسيقاها وكثرة أسلوب الاستفهام الإنكاري والتوكيد والوعيد والتحذير؛ وذلك لما يتناسب وعقول المكيين وأفهامهم لكونهم قوما جبارين تسودهم المنكرات؛ لإيقاظ قلوبهم إلى هول العذاب وصدق النذير.وقد ظهر أسلوب الحذف كحذف الفاعل والمفعول به لاسيما في فعل التكذيب، وكذلك التقديم والتأخير كتقديم الحال على عامله وتقديم المفعول به.

وفي مستوى الصورة اتضح في الآيتين (١١،١٢) مشهدان من العذاب أ–من السماء ب– من الأرض وفيهما مركب تمثيلي لهيئة اندفاق الأمطار.وتعددت الأطراف التي رسمتها صورة الجراد المنتشر وهي تتماثل مع أطراف لخروج من الأجداث. وجاءت في الآية (٢٠) صورة بصرية حركية توحي بأن العذاب الذي حل بهم كان عذاب استئصال، وانتهى مشهد عذابهم بصورة بصرية صورة (الهشيم المحتظر) غرضه تقريب الصورة للأذهان.

المصادر والمراجع:

REFERENCES:

Abdul Muṭalib, M. (1994). Al-Balāgah wa al-Uslūbiyyah. Beirut: Maktabah Lubnān Longman.

Abdul-Wahid, Bahjat. (2000). ḫukm al-ḫazf wa al-Ikhtiṣār fi Kitāb Allah al-Jabbar. Amman-Jordan: Maktabah Dandīs.

Abu Hayyān, M. ibn Yūsuf. (1983). Al-Baḫr al-Muḫiṭ. Beirut: Dār al-Fikr li-Tibā't wa nashr, 2nd. ed.

Al-Abd, Muhammad S. (1989). "Min Suwar al-I'jāz al-Ṣawtī fi al-Qur'an al-Karīm. Al-Majallah al-Arabiyyah lil Ulūm wal Insāniyyah, Vol.9 (36).

Al-Alūsī, Shihāb Dīn M. (1997). Rūḫ al-Ma'ānī fi Tafsīr al-Qur'ān. Beirut : Dār al-Kutub al Ilmiyyah.

Al-Baiḍawī, Nāṣir Dīn. (1999). Anwār al-Tanzīl wa Asrār al-Ta'wīl. Beirūt: Dār al-Kutub al-Ilmiyyah.

Al-Fairūz Abādī, M. (1995). Al-Qāmūs al-Muhīṭ. Beirut : Dār al-Kutub al Ilmiyyah.

Al-Fakhr al-Rāzī, M. (1997). Al-Tafsīr al-Kabīr Mafātih al-Ghaib. Dār Iḫyā' Turath al-Arabī.

Al-Jamakhsharī, M. (n.d). al-Kashāf an ḫaqāiq al-Tanzīl. Beirut : Dār al-Fikr li Tibā'h wa Nashr.

Al-Jurjānī, Abdul Qāhir. (n.d). Dalāil al-I'jzāz. Beirut: Dār al-Ma'rifah.

Al-Khatib, Abdulkarim. (1974). Al-I'jzāz fi dirāsāt al-Sābiqīn. Cairo: Dār al-Fikr al-Arabi.

Al-Qāsimī, M. (1978). Mahāsin al-Ta'wīl, Tahqīq : Fuad Abdul Bāqī. Beirut : Dār al-Firkr.

Al-Qurtubi, M. (1993). Al-Jāmi' li Aḫkām al-Qur'ān. Beirut : Dār al-Kutub al Ilmiyyah.

Al-Sābūnī, M. A. (1998). Safwah Tafāsīr. Beirut: Dār Iḫyā Turāth Arabī.

Al-Shawkānī, M. (1995). Fath al-Qadīr al-Jāmi' bayna Fannai al-Riwāyah wa al-Dirāyah min Ilm al-Tafsīr. Beirut: Dār al-Ma'rifah.

Ibn Ashūr, M. Tahir. (n.d). al-Tahrīr wa Tanwīr. Tunis: Dār Suhnūn li narshr wa Tawzi'.

Qutb, Sayyid. (1998). Fī Zilāl al-Qur'ān. Beirut: Dār Iḫyā al-Turāth al-Arabī.